الإمام ابن حزم ومنهجيته في التعامل مع مختلف العلوم ومدى صلاحيتها لأسلمة المعارف الإنسانيّة

حسن بن إبراهيم الهنداوي*

ملخص البحث

إنّ للأمم المتحضرة عناية بتصنيف العلوم وترتيبها، لما لذلك من أثر إيجابي في التعليم والتنمية العلميّة. ولذا، فقد كان لعلمائنا اعتناء بهذا الأمر، وهو حال علماء الغرب المعاصرين، إذ إنهم اعتنوا بذلك أيما اعتناء، حيث يقومون بإحصاء العلوم والتأريخ لها. وليست الغاية من تصنيف العلوم هو مجرد إحصائها وترتيبها كما هو متبادر إلى الذهن، بل إنّ هذا العلم يحمل في ظاهره الوصفي التقريري غاية معيارية تتمثل في اتخاذه من وصف ما كان من واقع العلوم، بناء لما ينبغي أنْ يكون في توجهات العقل إلى المعرفة سواء على مستوى إبداعي بالتوجيه إلى المستجدّ من مناطات الاستكشاف العقلي بحسب ما يقتضيه تقدم الحياة الإنسانيّة، أو الاعتناء بالأهم فالأهم، والأنفع فالأنفع، بحسب ما تمليه حاجة الأمة ومصلحتها. ولقد اختلف العلماء في المنهج الذي ينبغي سلوكه أثناء عملية تصنيف العلوم وترتيبها اختلافًا ناتجًا عن النظرة إلى العلوم ذاتها. فمن يرى أنّ العلوم تتفاضل فيما بينها قام بترتيبها ترتيبا حسب الأشرفية والأفضلية. وفي هذه الحال يختلف العلماء اختلافا بيّنا في الترتيب، حيث إنّ كلّ عالم يرتبها من جهة حكمه على العلوم وأيها أشرف، فلا يحصل بينهم اتفاق على ترتيب معيّن. وأما من يرى أنّ العلوم منها النافع ومنها الضار، فيقوم بترتيبها حسب هذا المنظور في التفرقة بين العلوم النافعة والضارة. وفي هذا الصدد قد وقع اختياري على الإمام ابن حزم ومنهجيته في التعامل مع العلوم، ومن بينها العلوم الإسلامية والدِّراسات المتعلقة بها. فعلى الرغم من وجود العديد من البحوث والدِّراسات التي اهتمت بابن حزم –رحمه الله– إبرازا لمعالم شخصيته العلمية ومميِّزاته الفكرية، إلا أنّ البحث في المنهجيّة الحزمية لا يزال في مرحلة الطفولة؛ صغير الميلاد حديث السنِّ. ولذا رأيت من المهمِّ أن أعتني بهذا الجانب في دراسة المعالم المميِّزة لشخصية ابن حزم العلمية لإبراز ملامح منهجيته في التعامل مع مختلف

---

*أستاذ مساعد بقسم الفقه وأصول الفقه، كليّة معارف الوحي والعلوم الإنسانيّة، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

العلوم والمعارف، ومدى صلاحية هذه المنهجية في تقريب العلوم الغربية للتداول الإسلامي والاستفادات منها في تطوير العلوم والدّراسات الإسلامية. ولذا كان التركيز في هذه الدِّراسة على الوقوف على المنهجية التي سلكها ابن حزم أثناء تعامله مع مختلف العلوم والمعارف، حيث إنّه لم يكن يتعامل معها كيفما اتفق، بل كان يسير على منهجيّة ذات ضوابط ومعالم يفيء إليها كلما أملت عليه الضرورة ذلك. فمحاولة من الباحث لاستخلاص الملامح المميِّزة للمنهجيّة الحزمية من خلال مصنفاته التي بين أيدينا، وبيان مدى صلاحية المنهجية الحزمية لأسلمة العلوم والمعارف.

Abstract

Civilized nations pay attention to the classification and arrangement of domains of knowledge because it has a positive impact on education and scientific development. That is why our scholars had paid due attention to this matter; in the similar way as contemporary Western scholars, they recorded various disciplines of knowledge in exhaustive manner and provided their history of development. As the result of different perceptions of knowledge, the scholars have differed concerning the approach to be followed during the process of classification of sciences and their arrangement. Those who believed that some disciplines are more important than others, arranged according to preference and importance of the subjects. In this case, the scholars disagreed tremendously while making the classification and the arrangement. Regarding the issue of classification and arrangement, I chose Imam Ibn Hazm and his methodology in dealing with sciences including Islamic sciences and studies. Although there are many researches and studies concerning scientific and intellectual characteristics of Imam Ibn Hazm, yet the research related to his methodology is at the stage of infancy. Therefore, I thought that it is important to tackle this aspect to highlight the features of the methodology of Ibn Hazm in dealing with various fields of science and knowledge and to assess the validity of this methodology in approximation of the Western science for Islamic use in developing Islamic sciences and studies. The researcher attempts to extract distinctive features of the methodology of Ibn Hazm through the study of his available works and assess its Suitability for the Islamization of Knowledge.

Abstrak
Negara-negara bertamadun memberi perhatian kepada klasifikasi dan domain ilmu kerana ia mempunya impak yang positif terhadap pendidikan dan perkembangan saintifik. Kerana itu, para ulama memberi perhatian secukupnya kepada perkara ini; dalam cara yang sama seperti sarjana Barat kontemporari, mereka mencatatkan pelbagai disiplin ilmu dengan cara yang menyeluruh dan menyediakan sejarah perkembangan mereka. Hasil perbezaan persepsi ilmu, para ulama berselisih tentang pendekatan yang perlu diikuti semasa proses klasifikasi sains dan pengaturan mereka. Mereka yang mempercayai bahawa sesetengah disiplin adalah lebih penting dari yang lain, disusun mengikut keutamaan dan kepentingan subjek. Dalam hal ini, meskipun para ulama tidak bersetuju namun tetap membuat klasifikasi dan susunan. Mengenai isu klasifikasi dan susunan, saya memilih Imam Ibn Hazam dan metodologinya untuk menangani sains termasuk sains dan pengajian Islam. Walaupun terdapat banyak penyelidikan dan kajian mengenai ciri-ciri saintifik dan intelektual Imam Ibn Hazm, namun kajian yang berkait dengan metodologi beliau masih pada peringkat awal. Oleh itu saya berpendapat bahawa ia adalah penting untuk menangani aspek ini untuk menyerlahkan ciri-ciri metodologi Ibn Hazm dalam berurusan dengan pelbagai bidang sains dan ilmu dan untuk menilai kesahihan metodologi ini yang berhampiran dengan sains Barat untuk digunakan Islam untuk memperkembangkan lagi sains dan pengajian Islam. Penyelidik cuba untuk mengeluarkan ciri-ciri metodologi Ibn Hazam melalui pengajian karya-karya beliau yang sedia ada dan menilai kesesuaiannya untuk pengIslaman Ilmu.

مقدمة

الإمام الأصوليّ النظار علي بن أحمد بن سعيد ابن حزم[1] المكنى بأبي محمد مثال يُحتذى به في رباطة جأشه ومضاء عزيمته وسعة صبره، إذ إنّ حصيلته العلميّة

---

[1] للاطلاع على سيرة ابن حزم يفضل الرجوع إلى: الحميدي، أبي عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد بن يصل الأزدي الأندلسي المالكي، **جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس**، تحقيق: إبراهيم الأبياري، (القاهرة: دار الكتاب العربي، ط3، 1989م)، ص199-200؛ وأبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى التلمساني القاهري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**، تحقيق:

ومصنفاته الكثيرة، مع حياة مليئة بالمصائب والرزايا من فقد حبيب وموت قريب، وتغريب وتشريد، وسجن وحصار، برهان على ما امتاز به هذا الإمام من صفات صعبة المنال إلا لمن احتذى حذوه وسار على منهاجه، يقول ابن حزم: "وما ألفنا كتابنا هذا [التقريب لحدّ المنطق] وكثيرا مما ألفنا، إلا ونحن مغربون مبعدون عن الموطن والأهل والولد، مخافون مع ذلك في أنفسنا ظلما وعدوانا"[2].

ومع ذلك فقد "كان حافظاً عالما بعلوم الحديث وفقهه، مستنبطا للأحكام من الكتاب والسنّة، متفننا في علوم جمّة، عاملا بعلمه، زاهدا في الدنيا بعد الرئاسة التي كانت لأبيه من قبله في الوزارة، وتدبير الممالك، متواضعا ذا فضائل جمّة، وتواليف كثيرة في كلّ ما تحقق به من العلوم، وجمع من الكتب في علم الحديث والمصنّفات والمسندات شيئًا كثيرًا، وسمع سماعًا جمًّا"[3]. وليس بالأمر الهيِّن أن نستوعب الكلام على جميع العلوم التي اشتغل بها ابن حزم وكانت له فيها مشاركة، نظرا لما اتصف به من الموسوعيّة والشموليّة في دراسته وتحصيله، فهو مع الأدباء أديب بجودة شعره وبراعة نظمه، ومع المحدِّثين محدث لا يشق له غبار، ومع الأصوليين أصوليّ مستقل

محمد عبد الحميد (بيروت: دار الكتاب العربي، د .ت)، ج2، ص284؛ وابن بشكُوَال، خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال الأنصاري الأندلسي، **الصلة**، تحقيق: إبراهيم الأبياري، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1989م)، ج2، ص606؛ وابن عميرة الضبي، أبو جعفر أحمد بن يحيى بن أحمد، **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس**، تحقيق: إبراهيم الأبياري (بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1989م)، ج1، ص198؛ وياقوت الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، **معجم الأدباء** (بيروت: دار الفكر، ط3، 1980)، ج6، ج12، ص238؛ والذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق: شعيب الأرناؤط ومحمد نعيم العرقسوسي (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1984م)، ج18، ص148.

[2] ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي الظاهري، **التقريب لحد المنطق** (ضمن مجموعة رسائله)، تحقيق: إحسان عبّاس (بيروت: المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، ط2، 1987م)، ج4، ص200.

[3] الحميدي، **جذوة المقتبس** – مرجع سابق –، ص490.

بمنهجه، ومع الفقهاء فقيه مفرِّع، ومع أهل الملل والنحل جدليّ نظار لا يُبارى، ومع المناطقة مِنْطِيق عارف بأساليب القوم خبير بصناعتهم.

"وهكذا لا تجد بابا من [أبواب] العلم الإسلامي إلا خاض فيه ابن حزم خوض العارف بمراميه، المدرك بمغازيه، فيقبل الحق الذي يعتقده حقا، ويردّ في عنف ما يراه باطلا، ويردّ المسببات إلى أسبابها، والنتائج إلى مقدماتها، والأقوال إلى غايتها، في قلم مبين مصور، وعبارة نيِّرة"[4]، وعلى الجملة فهو نسيج وحده كما قال بحق المقرّي أحمد بن محمد[5]. وعلى الرغم من ذلك، فإننا لا نكاد نجد ذِكرا لابن حزم – رحمه الله – أثناء الحديث عن أسلمة العلوم والمعارف الإنسانيّة، فضلا عن بيان منهجيّته في التعامل مع العلوم. ولا أكون محابيا ولا مغاليا إذا قلت: إنّ الإمام ابن حزم من أبرز العلماء انفتاحا على علوم ومعارف عصره، إن لم يكن أبرزهم على الإطلاق. ولولا هذا الانفتاح الذي تميز به هذا الإمام، لما كان يتجه اتجاها متميِّزا بالموسوعيّة والشموليّة في الدِّراسة والتحصيل.

ولَّما لْم يكن غرضنا استيعاب القول في العلوم والمعارف التي اشتغل بها ابن حزم دراسة وتحصيلا، فإنّ ذلك بحاجة إلى بحث مستقلّ، ولكن غرضنا في هذه الدِّراسة الوقوف على المنهجية التي سلكها ابن حزم أثناء تعامله مع مختلف العلوم والمعارف، حيث إنّه لم يكن يتعامل معها كيفما اتفق، بل كان يسير على منهجيّة ذات ضوابط ومعالم يفيء إليها كلما أملت عليه الضرورة ذلك. ونحاول في هذه الدِّراسة لاستخلاص الملامح المميِّزة للمنهجيّة الحزمية من خلال مصنفاته التي بين أيدينا. ثم التطرق لبيان مدى صلاحية المنهجية الحزمية لأسلمة العلوم والمعارف، وفي المبحثين

---

[4] أبو زهرة، محمد، **ابن حزم: حياته وعصره، آراؤه وفقهه** (القاهرة: دار الفكر العربي، 1977م)، ص145.

[5] المقري، **نفح الطيب** – مرجع سابق –، ج2، ص284.

القادمين بيان لذلك، ولكن قبل ذلك أخصص مبحثا تمهيديا للحديث عن سيرة ابن حزم باختصار، وأهم العلوم التي اشتغل بها ابن حزم.

مبحث تمهيدي في سيرة ابن حزم:

حظيت سيرة ابن حزم باهتمام بالغ من قبل كثير من الباحثين والدارسين المشتغلين بمختلف العلوم والمعارف، نظرا لما امتاز به تحصيله العلمي من استيعاب لجميع علوم ومعارف عصره تقريبا، بل حتى ما كان مذموما ومستهجنا في البيئة الأندلسيّة آنذاك، ومن اشتغل بها اتهم في دينه ورُمي بالفسق والزندقة، مثل الاشتغال بالفلسفة والمنطق. وليس الغرض من هذه الترجمة الإحاطة بحياة ابن حزم رحمه الله منذ النشأة حتى الوفاة، ولا التوسّع في ترجمته توسعا يستغرق كلّ شاذّة وفاذّة في سيرته، ولكن سأقتصر فيها على تعريف موجز مختصر بهذه الشخصيّة، مع التركيز على أهم العوامل التي أثرت في تكوينه العلمي، حتى يتسنى للقارئ التعرّف عليه ولو بصورة إجماليّة، ولذا خصصت هذا الفصل وجعلته في مبحثين.

أولهما تعرّضت فيه لحياة ابن حزم والتعريف به مولدا ونشأة ووفاة. ثم ذكرت شيوخه وتلامذته، وفي خاتمة المبحث ذكرت العلوم والمعارف التي اشتغل بها ابن حزم دراسة وتحصيلا وتدريسا، والتي تنم عن شخصية هذا الإمام في تنوع عطائها وغزارة علمها ووفرة إنتاجها، واقتصرت الكلام على بعض العلوم التي برز فيها ابن حزم بروزًا متميّزًا، فضلا عن أنّ لها علاقة ببحثنا مثل: الحديث والفقه والأصول.

وأما **ثانيهما** فخصصته للحديث عن البيئة الأندلسيّة في الفترة التي عاش فيها ابن حزم، والتي تمتدّ بين سنتي 384 و456 هجرية، وخصوصا البيئة السياسيّة والاجتماعيّة والعلميّة، فابن حزم كان رجل السياسة ورجل المجتمع ورجل العلم، وبعبارة أخرى فهو جزء لا يتجزأ من البيئة الأندلسية آنذاك، فضلا عما كان لهذه البيئة من تأثير مباشر في تكوين شخصيته المتميزة عمن عاصروه.

المبحث الأول: مولده ونشأته ووفاته

الإمام الأصوليّ النظار ابن حزم المكنى بأبي محمد، واسمه علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، وبهذا الأخير اشتهر بين العلماء، فإذا أطلق ابن حزم عندهم ولا سيما في مجالي الفقه والأصول كان المقصود به صاحب هذه الترجمة، وكنيته هي التي كان يعبّر بها في كتبه ورسائله غالبا، وباسمه نادرا[6]. ووالده أحمد بن سعيد فقد "كان وزيرا في الدولة العامرية، ومن أهل العلم والأدب والخير، وكان له في البلاغة يد قوية، سمعت أبا العباس أحمد بن رشيق الكاتب يقول: كان الوزير أبو عمر ابن حزم يقول: إني لأعجب ممن يلحن في مخاطبة، أو يجيء بلفظة قلقة في مكاتبة، لأنه ينبغي له إذا شكّ في شيء أنْ يتركه ويطلب غيره، فالكلام أوسع من هذا أو كما قال. وهذا لا يقوله إلا المتبحِّر الواسع في العلم"[7].

وأما مولده فقد أجمع كلّ من ترجموا له أنه "ولد بقرطبة في الجانب الشرقي من ربض مُنية المغيرة قبل طلوع الشمس وبعد سلام الإمام من صلاة الصبح آخر ليلة الاربعاء آخر يوم من شهر رمضان المعظم وهو اليوم السابع من نوفمبر سنة أربع وثمانين وثلاثمائة (384هـ) بطالع العقرب"[8]. وهذه الدقة في تحديد وقت مولده "تدل على عناية أسرته بتحرير تاريخ ولادة آحادها، وإلا ما تسنى لابن حزم أن يعرف ميلاده بذلك التعيين والتدقيق، ويدل على تحضر أهل الأندلس وعناية أهلها بأخبار مواليدها. وعلى رفعة شأن تلك الأسرة حتى كانت تعنى هذه العناية"[9].

---

[6] وهذا أمر يلاحظه كلّ من اطلع على كتبه كلّها أو بعضها، وعلى سبيل المثال ففي كتابه المحلى والإحكام غالبًا ما يقول في حكاية آرائه: قال أبو محمد، ونادراً ما يقول: قال علي بن أحمد.

[7] الحميدي، **جذوة المقتبس**، ص199-200.

[8] المقري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، ج2، ص284.

[9] أبو زهرة، **ابن حزم: حياته وعصره ـــ آراؤه وفقهه**، ص24.

وقد نشأ ابن حزم في بيت وزارة بقرطبة حاضرة الأندلس، إذ كان والده وزيرا للحاجب المنصور بن أبي عامر. وهذه النشأة تتصف بالرفاهيّة والتنعم حيث الجاه العريض والمال الوفير والنساء الشقراوات والجواري الحسان. وفي هذه البيئة المنعمّة بدأ ابن حزم حياة الطلب والدراسة والتحصيل لعلوم ومعارف وقته، إذ كان أبوه حريصا على صرف همته إلى طلب العلم والتوجه نحو الأخذ عن مشايخ عصره والاشتغال بذلك منذ الصبا. ويعدّ كتابه "طوق الحمامة" أهم مصدر لهذه الفترة من حياته، حيث نجد فيه وصفا دقيقا للبيئة التي نشأ وترعرع فيها مثل: القصور والنساء والجواري، وفي هذه البيئة الأوليّة تعلم ابن حزم القرآن الكريم، وحفظ كثيرا من الشعر وأتقن الخطّ بفضل النساء اللواتي في القصر، بل إنّ المرحلة الأولى من حياته والتي تمتدّ منذ الولادة حتى سنّ الخامسة عشرة تقريبا كانت مشيخته والمشرفون على تربيته وتعليمه طائفة من نسوة قصر أبيه.

وهذا أمر يقرره ابن حزم نفسه فيقول: "ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهنّ ما لا يكاد يعلمه غيري، لأني ربيت في حجورهنّ ونشأت بين أيديهنّ، و لم أعرف غيرهنّ، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حدّ الشباب حين تفيّل وجهي. وهنّ علمنني القرآن وروينني كثيرا من الأشعار ودربنني في الخطّ و لم يكن وكدي وإعمال ذهني مذ أول فهمي وأنا في سنّ الطفولة جدا إلا تعرف أسبابهنّ والبحث عن أخبارهنّ، وتحصيل ذلك وأنا لا أنسى مما أراه منهن، وأصل ذلك غيرة شديدة طبعت عليها، وسوء ظنّ في جهتهنّ فطرت به فأشرفت من أسبابهنّ على غير قليل"[10].

إذا "في قصر والده بقرطبة تلقى ابن حزم تنشئته الاجتماعيّة الأولى، إذ فيه عرف كل شيء من تلقين وتعليم وتربية وتهذيب وخفايا. لقد كان القصر هو عالمه

---

[10] ابن حزم، **طوق الحمامة في الألفة والإلاف**، تحقيق فاروق سعيد، (بيروت: دار مكتبة الحياة، 1975م)، ص140.

الحقيقي، نظرا لأنه لم يكن يغادره إلا قليلا، إما من أجل زيارة قصر وزير آخر أو رئيس من الرؤساء أو قصر الخليفتين اللذين استوزرا والده وهما المنصور وابنه المظفر. وقد أوكل والده أمر تعليمه للحريم، فكانت أساتذته ومربياته ومجالساته"[11]. ثم إنّ والده كان في غاية الحرص على تعليمه وتربيته وتهذيبه، لأن هذه البيئة وحدها لا تكفي لتخريج عالم ذا عطاء فعّال، بل لابدّ من الأخذ عن أساطين العلم وأرباب كلّ فن وعلم، فوجهه أولا إلى أبي علي الحسين بن علي الفاسي، وكان لهذا الشيخ الصالح أثرا في سيرة ابن حزم، إذ يقول: "ومع هذا (يقصد كثرة مجالسته ومخالطته للنساء) يعلم الله وكفى به عليما أني برئ الساحة، سليم الأديم، صحيح البشرة، نقي الحجرة، وأني أقسم بالله أجلّ الأقسام أني ما حللت مئزري على فرج حرام قط، ولا يحاسبني ربي بكبيرة الزنا مذ عقلت إلى يومي هذا ... وكان السبب في ما ذكرته أني كنت وقت تأجج نار الصبا وشرة الحداثة وتمكن الفتوة مقطوراً محضراً علي بين يدي رقباء ورقائب، فلما ملكت نفسي وعقلت صحبت أبا علي الحسين بن علي الفاسي في مجلس أبي القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزدي، شيخنا وأستاذي ﷺ، وكان أبو علي المذكور عاقلاً عاملاً عالماً ممن تقدم في الصلاح والنسك الصحيح في الزهد في الدنيا والاجتهاد للآخرة وأحسبه كان حصوراً لأنّه لم يكن له امرأة قط وما رأيت مثله جملة علماً وعملاً وديناً وورعاً فنفعني الله به كثيراً وعلمت موقع الإساءة وقبح المعاصي"[12].

بدأ ابن حزم يسمع من شيوخ عصره ويتلقى العلم من أهله سنة 399 هجرية، وقد بلغ من العمر خمس عشرة سنة، إلا أن هذه المرحلة من حياته لم تستمر على هذا النسق من السعادة والرخاء والرفاهيّة، بل تأثرت بما اعتورت الدولة الأندلسية من فتن

---

[11] يفوت، سالم، **ابن حزم والفكر الفلسفي بالمغرب والأندلس** (المغرب: الدار البيضاء، 1986م)، ص41.

[12] ابن حزم، **طوق الحمامة** – مرجع سابق –، ص274-275.

واضطرابات أثرت في وضعية أسرة صاحبنا. ولقد عبّر ابن حزم عن هذه الفترة بقوله: "شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات، وباعتداء أرباب دولته، وامتحنا بالاعتقال والتغريب والإغرام الفادح والاستتار، وأرزمت الفتنة وألقت باعها وعمت الناس وخصتنا، إلى أن توفي أبي الوزير - رحمه الله - ونحن على هذه الحال بعد العصر يوم السبت لليلتين بقيتا من ذي القعدة عام اثنتين وأربعمائة"[13]. ويعدّ هذا الحدث بداية سلسلة من النكبات والمصائب مُنيت بها أسرة ابن حزم نتيجة للاضطرابات السياسية وحالة الفوضى التي عمت بلاد الأندلس تقريبا، حتى اضطرت أسرته إلى الخروج من قرطبة، حيث "ألقت الفتن جرانها، وأرخت عزاليها ووقع انتهاب جند البربر لمنازلنا في الجانب الغربي بقرطبة...وتقلبت بي الأمور إلى الخروج من قرطبة وسكنى مدينة المريّة"[14].

ولم يَرجع ابن حزم إلى قرطبة بعد إذ خرج منها إلا وهو في السادسة والعشرين من عمره، وقد قاسى ألوانا شتى من المحن والمصائب، ولكنها لم تثنه عن تحصيل العلم وطلبه، إذ بعد عدّة تجارب سياسيّة فاشلة، والخروج عن الطارف والتليد، انقطع ابن حزم إلى العلم وبذل فيه وسعه، حتى "إنّ الناظر إلى حال صاحبنا في نشأته ثم حاله فيما بعد ذلك ليدهش لما أصابه من تقلبات الأحوال، وعدم تخاذله أمامها ويدرك أن حياته صورة للإرادة التي لا تعرف التردد"[15].

ولقد أفصح ابن حزم نفسه عمّا استقر عليه حاله بعد توالي المحن والمصائب والتشريد والتغريب بأسلوب فيه مرارة ولوعة وأسى إذ يقول: "والكلام في مثل هذا [يقصد الحب ومعانيه] إنما هو من خلاء الذرع وفراغ القلب، وإن حفظ شيء وبقاء

---

[13] المرجع نفسه، ص251.

[14] **المرجع نفسه**، ص261.

[15] الحمدة، أحمد، **ابن حزم وموقفه من الإلهيات** (مكة: مركز البحث العلمي، 1406هـ)، ص44.

رسم وتذكر فائت لمثل خاطري لعجب على ما مضى ودهمني، فأنت تعلم أن ذهني متقلب وبالي مهصر بما نحن فيه من نبو الديار، والجلاء عن الأوطان، وتغيّر الزمان، ونكبات السلطان وتغيّر الإخوان، وفساد الأحوال وتبدل الأيام وذهاب الوفر، والخروج عن الطارف والتليد، واقتطاع مكاسب الآباء والأجداد والغربة في البلاد، وذهاب المال والجاه، والفكر في صيانة الأهل والولد، واليأس من الرجوع إلى موضع الأهل، ومدافعة الدهر، وانتظار الأقدار لا جعلنا الله من الشاكين إلاّ إليه، وأعادنا إلى أفضل ما عودنا"[16].

إذن، فقد ولد ابن حزم بقرطبة سنة 384 هجرية، وبها نشأ وترعرع في تنعم ورفاهية حتى سنّ الخامسة عشر، ثم توالت عليه المحن والمصائب فغُرب وشُرد وانتهبت دوره وأمواله، وخاض تجارب سياسيّة فاشلة، فضلا عما جرته عليه من مصائب ومتاعب اضطرته إلى أن يعتزل السياسة أو تعزله السياسة، وينقطع إلى طلب العلم وتعليمه حتى وافاه الأجل "عشية يوم الأحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة ست وخمسين وأربعمائة (456 هجرية، فكان عمره – رحمه الله – إحدى وسبعين سنة وعشرة أشهر، وتسعة وعشرين يوما"[17].

المبحث الثاني: الحصيلة العلميّـــة

ابن حزم مثال يُحتذى به في رباطة جأشه ومضاء عزيمته وسعة صبره، إذ إنّ حصيلته العلميّة ومصنفاته الكثيرة، مع حياة مليئة بالمصائب والرزايا؛ من فقد حبيب وموت قريب، وتغريب وتشريد، وسجن وحصار، برهان على ما امتاز به هذا الإمام من صفات صعبة المنال إلا لمن احتذى حذوه وسار على منهاجه. يقول ابن حزم:"وما ألفنا كتابنا هذا [التقريب لحدّ المنطق] وكثيرا مما ألفنا، إلا ونحن مغربون مبعدون عن

---

16 ابن حزم، **طوق الحمامة** – مرجع سابق –، ص251.

17 ابن بشكُوَال، **الصلة**، ج2، ص606.

الموطن والأهل والولد، مخافون مع ذلك في أنفسنا ظلما وعدوانا"[18]. ورغم ذلك كلّه، فقد "كان حافظاً عالما بعلوم الحديث وفقهه، مستنبطا للأحكام من الكتاب والسنّة، متفننا في علوم جمّة، عاملا بعلمه، زاهدا في الدنيا بعد الرياسة التي كانت لأبيه من قبله في الوزارة، وتدبير الممالك، متواضعا ذا فضائل جمّة، وتواليف كثيرة في كلّ ما تحقق به من العلوم، وجمع من الكتب في علم الحديث والمصنّفات والمسندات شيئا كثيراً، وسمع سماعًا جمًّا"[19].

وليس بالأمر الهيِّن أن نستوعب الكلام على جميع العلوم التي اشتغل بها ابن حزم وكانت له فيها مشاركة، نظرا لما اتصف به من الموسوعيّة والشموليّة في دراسته وتحصيله، فهو مع الأدباء أديب بجودة شعره وبراعة نظمه، ومع المحدِّثين محدث لا يشق له غبار، ومع الأصوليين أصوليّ مستقل بمنهجه، ومع الفقهاء فقيه مفرِّع، ومع أهل الملل والنحل جدليّ نظار لا يُبارى، ومع المناطقة مِنْطِيق عارف بأساليب القوم خبير بصناعتهم، "وهكذا لا تجد بابا من [أبواب] العلم الإسلامي إلا خاض فيه ابن حزم خوض العارف بمراميه، المدرك بمغازيه، فيقبل الحق الذي يعتقده حقا، ويردّ في عنف ما يراه باطلا، ويردّ المسببات إلى أسبابها، والنتائج إلى مقدماتها، والأقوال إلى غايتها، في قلم مبين مصور، وعبارة نيِّرة"[20]، وعلى الجملة فهو نسيج وحده كما قال بحق المقرّي أحمد بن محمد[21].

ولَمَّا لَمْ يكن من غرضنا استيعاب القول في العلوم التي اشتغل بها ابن حزم دراسة وتحصيلا، فإننا سنقتصر على بعضها، بحيث نفرد كلّ علم بجمل قليلة نبرز من خلالها مكانة ابن حزم العلميّة، ولا يعني ذلك التقليل من شأن العلوم التي لم نتطرق إليها، بل

---

[18] ابن حزم، **التقريب لحد المنطق** ج4، ص200.

[19] الحميدي، **جذوة المقتبس** – مرجع سابق –، ص490.

[20] أبو زهرة، **ابن حزم** – مرجع سابق –، ص145.

[21] المقري، **نفح الطيب** – مرجع سابق –، ج2، ص284.

اخترت ما هو من اختصاصي أو قريب منه. ناهيك عن أنّ ابن حزم لم يكن همّه تغليب نقل على عقل، ولا تغليب عقل على نقل، بل كان همّه طلب الحقّ ونصرته، ودحض الباطل وهزيمته. ولعلّ هذا السبب ما حدا بابن حزم -رحمه الله- إلى دراسة وتحصيل جميع علوم ومعارف عصره تقريبا[22]. وبناء على ذلك، سأقتصر الكلام على الحديث والأصول والفقه فحسب.

1- الحديث: اهتم ابن حزم اهتمامًا بالغًا بطلب الحديث وسماعه، فأكثر من الأخذ عن شيوخ المحدثين بالأندلس، وخاصّة قرطبة، حيث تتلمذ على سائر محدثيها تقريبا، وأعانه على ذلك حافظة قويّة وهمّة عالية، فضلا عمّا اتصف به من جودة فهم وحسن جمع بين أشتات الأحاديث التي تبدو لغير المتمرس متعارضة ومتناقضة، وذلك برهان على سعة حفظه وكثرة اطلاعه على المصنفات الحديثيّة، يقول الذهبي: "ورأيته قد ذكر قول من يقول: أجل المصنفات الموطأ فقال: بل أولى الكتب بالتعظيم صحيحا البخاري ومسلم، وصحيح ابن السكن، ومنتقى ابن الجارود، والمنتقى لقاسم ابن أصبغ، ومصنف ابن جعفر الطحاوي، ومسند البزار ومسند ابن أبي شيبة، ومسند أحمد بن حبل، ومسند إسحاق، ومسند الطيالسي، ومسند الحسن بن أبي سفيان، ومسند ابن سنجر، ومسند عبد الله بن محمد المسندي، ومسند يعقوب بن أبي شيبة، ومسند علي بن المديني، ومسند بن أبي غرزة، وما جرى مجرى هذه الكتب التي أفردت لكلام رسول الله ﷺ صرفا. ثم الكتب التي فيها كلامه وكلام غيره، مثل مصنّف عبد الرزاق، ومصنّف أبي بكر بن أبي شيبة، ومصنّف بقي بن مخلد، وكتاب محمد بن نصر المروزي، وكتاب ابن المنذر الأكبر والأصغر، ثم مصنّف حمّاد بن سلمة

[22] لصاحب هذه الدِّراسة بحث في هذا الموضوع بعنوان "**منهجية الإمام ابن حزم في التعامل مع العلوم**"، وقد بيّنت فيه كيفية تعامل هذا الإمام مع العلوم والمعارف التي زخر بها عصره. وهذا البحث قد قدّم للمؤتمر العالمي لأسلمة العلوم الذي عقد بماليزيا سنة 2000م.

ومؤطأ مالك بن أنس، وموطأ ابن أبي ذئب، وموطأ ابن وهب، ومصنّف وكيع، ومصنّف محمد بن يوسف الفرياني، ومصنّف سعيد بن منصور، ومسائل أحمد بن حنبل وفقه أبي عبيد وفقه أبي ثور"[23].

إنّ الناظر في مؤلفات ابن حزم يتجلى له ذلك بكل وضوح، حيث يغلب على كتبه ولاسيما الفقهيّة والأصوليّة منها، كثرة الاستشهاد بالأحاديث النبويّة، مع التزامه بروايتها مسندة منه إلى الرسول ﷺ رغم كثرتها، فالمحلى قد حوى من الأحاديث آلافا، ومع ذلك تجدها مرويّة بأسانيدها واختلاف رواياتها، ومثال ذلك قوله: "حدثنا همام قال: ثنا عباس بن أصبح، ثنا محمد بن عبد الملك بن أيمن، ثنا أبو عبد الله الكابلي ببغداد، ثنا إسماعيل بن أبي أويس، حدثني أبي عن عبد الله، ومحمد بن أبن بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن أبيهما، عن جدّهما، عن رسول الله ﷺ: أنه كتب هذا الكتاب لعمرو بن حزم حين أمّره على اليمن وفيه الزكاة، ليس فيها صدقة حتى تبلغ مائتي درهم ففيها خمسة دراهم، وفي كلّ أربعين درهما درهم، وليس فيما دون الأربعين صدقة، فإذا بلغت الذهب قيمة مائتي درهم ففي قيمة كل أربعين درهما درهم، حتى تبلغ أربعين دينارا، فإذا بلغت أربعين دينارا ففيها دينار"[24].

ولعلّ المنهج الذي سلكه ابن حزم في استنباط الأحكام الشرعيّة حتّم عليه طلب الحديث والإحاطة به إحاطة يغلب عليها التقصّي والاستقراء، ولاسيما أن منهجه الأصولي يرفض الاجتهاد بالرأي أيّا كان نوعه، ولا عبرة في نظره لأي مسألة فقهيّة لا يعتمد فيها على آية أو حديث، مع التمسك بظاهرهما وجعل ما جاءا به من حكم قاصرا على محلّه، فلا يتعدّى به موضعه الذي وضعه الشارع. فلا شكّ أن هذه الأمور

---

[23] الذهبي، **سير أعلام النبلاء** – مرجع سابق –، ج18، ص187.

[24] ابن حزم، **المحلّى بالآثار**، تحقيق: عبد الغفار البنداري (بيروت: دار الكتب العلميّة، 1988م)، ج6، ص103.

مجتمعة دفعت بابن حزم إلى طلب الحديث من كلّ مظانّه تقريبا سماعا من المحدثين وتحصيلا من بطون الكتب والمدوّنات الحديثيّة.

2- أصول الفقه: إنّ علم الأصول كان يسير في تيّار واحدٍ ومنهج معيّن، مع وجود خلافات داخل هذا المنهج، تبدو في صورة تناقض وتضارب، إلاّ أنها كلها تعبِّر عن الالتزام بمنهج واحد، متمثل في عمليّة الاستنباط عن طريق الاجتهاد بالرأي. وكان هذا المنهج (الاجتهاد بالرأي) هو المعتمد والمعوّل عليه في استنباط الأحكام الشرعيّة، مع تفاوت بين أئمة المذاهب توسعا وتضييقا في استخدامه، أو قبولا لدليل وردا لآخر، وعلى الجملة فالمنهج واحد. فلمّا ظهر ابن حزم أتى بمنهج أصولي جديد أنكر من خلاله الاجتهاد بالرأي من قياس واستحسان ومصلحة مرسلة وسدّ ذريعة وغيرها، وحصر الاجتهاد في النصوص الشرعيّة، وما لم يرد فيه نص استخدم معه أصل الاستصحاب[25].

ولم يصل ابن حزم لهذا المنهج الأصوليّ الذي اعتمده وعوّل عليه في استنباط الأحكام الشرعيّة، إلا بعد دراسة عميقة وتتبع طويل للمنهج الأصوليّ الذي تقدمه، فرفضه عن اقتناع واختار منهجاً أصوليًّا مغايرا يرى في آتباعه الحقّ والصواب، حيث" تفقه أولا للشافعي، ثم أداه اجتهاده إلى القول بنفي القياس كلّه جليه وخفيه، والأخذ بظاهر النصّ وعموم الكتاب والحديث، والقول ببراءة الذِّمة الأصليّة واستصحاب الحال، وصنّف في ذلك كتبا كثيرة وناظر عليه"[26].

وأهمّ مصنّف شرح فيه ابن حزم منهجه الأصولي هو "الإحكام في أصول الأحكام"، حيث بسط القول في بيان الأصول المعتمدة لديه، كما أسهب في الردّ على

---

25 لم يحظ الفكر الحزمي الأصولي بدراسة مستقلة تبيِّن هذا المنهج الأصولي بيانا شافياً رغم الدراسات الكثيرة التي كتبت عن ابن حزم، وقد شرع الباحث في هذا العمل، فأسال الله تعالى العون والتيسير والسداد والتوفيق، فإنه وليّ ذلك والقادر عليه.

26 الذهبي، **سير أعلام النبلاء** - مرجع سابق -، ج18، ص186.

الأصول التي رفضها. فالأصول التي اعتمدها بعد الكتاب والسّنة إجماع الصحابة والاستصحاب، ثم رفض ما سوى ذلك مثل: القياس والاستحسان والمصالح المرسلة ... الخ. يقول ابن حزم: "قد ذكرنا الوجوه التي تعبدنا الله تعالى بها، والتي لا حكم في شيء من الدين إلاّ منها. وهذا حين نذكر إن شاء الله تعالى الوجوه التي غلط بها قوم في الديانة، فحكموا بها وجعلوها أدلة وبراهين، وليست كذلك، والصحيح أنه لا يحل الحكم بشيء منها في الدين. وهي سبعة أشياء: شرائع الأنبياء السالفين قبل نبينا محمد، والاحتياط والاستحسان والتقليد والرأي ودليل الخطاب والقياس، وفيه العلل، ونحن إن شاء الله تعالى ذاكرون هذه الأوجه باب بابا، ومبينون وجه سقوطها وتحريم الحكم بها"[27].

3- الفقـــه: إذا أثبتنا أن لابن حزم منهج أصولي متميّز، فمن الطبيعي أن يكون فقهه أيضا متميزا عن فقه غيره، لأنّ الفقه في مآله عمليّة تطبيقيّة يقوم بها المجتهد لإخراج الأصول من دائرة التنظير إلى دائرة الواقع والتطبيق، فالعلاقة بين الفقه والأصول علاقة تواصليّة وليست تفاصليّة، والمذهب الذي سار عليه ابن حزم هو المذهب الظاهري، و"الظاهريّة مذهب في الفقه إنما يأخذ الشريعة بظاهر لفظ القرآن والسّنة، وهو بعد يزيد من حيث فروع الفقه في عدد القواعد المفصّلة المتباينة بالإتيان بعدّة خلافات تختصّ به وحده، وأهمّ من هذا أثره في أصول الفقه، فقد وسّع كثيراً في تنميتها وتوضيحها بإنكاره المتشدد للرأي، والقياس، والاستصحاب، والاستحسان، والتقليد"[28].

---

[27] ابن حزم، **الإحكام في أصول الأحكام**، تحقيق: أحمد شاكر (بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1980)، مج2، ج5، ص160.

[28] **دائرة المعارف الإسلاميّة**، ترجمة أحمد الشنتناوي وآخرون (بيروت، دار الفكر، د. ت)، ج15، ص409. والعجيب في هذا التعريف قولهم إن الظاهريّة ينكرون الاستصحاب، ووقع في الخطأ نفسه صاحب كتاب "**ظاهرية ابن حزم**: **نظريّة المعرفة ومناهج البحث**"، بينما الفقه الظاهري ولاسيّما الحزمي منه يقوم أساسا على

إذن، فـــ"لابن حزم فقه له لون خاص امتاز به، وله آراء فقهيّة ليست في فقه الأئمة الأربعة ولا غيرهم"[29]، بل خالفهم في مسألة مهمّة وهي مسألة القطع والظنّ في الفقه، حيث:"ذهب إلى القطع في جميع المسائل الشرعـــيّة خلافا لما ذهب إليه الفقهاء والمتكلمون من الحكم بغالب الظنّ وبمبدأ الاحتمال"[30]، أو ما أطلق عليه الدكتور الريسوني "نظريّة التقريب والتغليب في الفقه الإسلامي". ولقد انطلق ابن حزم من القول بالقطع في الأحكام الفقهيّة، ولذلك دائما يعتبر نفسه على صواب وغيره على خطأ. **فالمحلّى** الذي حوى الفقه الظاهري الحزمي، كما يعدّ من أوائل الموسوعات الفقهيّة التي اعتنت بالفقه المقارن، لا تجد فيه مسألة مبنيّة على الظنّ، بل مبنيّة على القطع واليقين، ولذلك كثيرا ما تجده يختم كلّ مسألة بعد استعراض واف لمختلف الأقوال والآراء بهذه العبارة أو ما يشبهها "بطلت جميع الأقوال وصحّ قولنا يقينا لا مجال للشكّ فيه، والحمد لله ربّ العالمين".

و لم يذهب ابن حزم للقول بالقطع في المسائل الفقهيّة اعتباطا، بل كان ذلك عن رويّة وتثبت وإدراك لما يقول، لأن المنهج الأصولي الذي اتبعه يؤدي إلى القطع واليقين في الغالب، إذ كان اعتماده في استنباط الأحكام الشرعيّة على نصوص الكتاب والسّنة النبويّة، ثم استصحاب حكم الأصل والمتمثل في الإباحة الشرعيّة، وفضلا عن ذلك، فقد تمسك بظاهر النصوص الشرعيّة ورفض تأويلها أو أيّ بحث في غائيتها للقياس عليها. وبناء على ما ذهب إليه من القول بالقطع في الأحكام الفقهيّة رفض الاجتهاد بالرأي وتشددّ في إنكاره والتشنيع على القائلين به، لأن الاجتهاد بالرأي يفتح منفذا

الاستصحاب والقول بأصل الإباحة، وهذا البحث بيان لفاعليّة هذا الدليل عند ابن حزم، وسأتعرض لبيان سبب الوقوع في هذا الخطأ في الفصل الرابع من هذا البحث أثناء التفصيل في حجيّة الاستصحاب عنده.

[29] أبو زهرة، **ابن حزم** – مرجع سابق –، ص260.

[30] داود، محمد سليمان، **نظريّة القياس الأصولي: منهج تجريبي إسلامي** (مصر: دار الدعوة للطبع والنشر، 1984م)، ص250.

واسعاً للظن في أغلب الأحكام الفقهيّـــة، وللتخلّص من ذلك رأى بطلان الاجتهاد بالرأي واعتماده طريقا من طرق الاستنباط.

ملامح المنهجيّة الحزمية

على الرغم من وجود العديد من البحوث والدِّراسات التي اهتمت بابن حزم رحمه الله إبرازا لمعالم شخصيته العلمية ومميِّزاته الفكرية، إلا أنّ البحث في المنهجيّة الحزمية لا يزال في مرحلة الطفولة؛ صغير الميلاد حديث السنِّ. ولذا رأيت من المهمِّ أن أعتني بهذا الجانب في دراسة المعالم المميِّزة لشخصية ابن حزم العلمية لإبراز ملامح منهجيته في التعامل مع مختلف العلوم والمعارف، وذلك من خلال النقاط الآتية:

أولا: الفهم والإحاطة بجهود السّابقين

إنّ العلوم والمعارف عبارة عن صرح غير مشيّد ولكنّه متعلٍّ، يعلو يوما بعد يوم، ويتم هذا التعلِّي نتيجة الإضافات التي يقدمها المتأخر لما خلفه المتقدم في هذا الصرح المتعلِّي[31]. فمن خلال هذه النظرة التراكمية لنموّ العلوم والمعارف تبرز أهمية الفهم والإحاطة بجهود السابقين؛ حيث إنّ المساهمة في البناء المعرفي لا تتم إلا بعد العلم والمعرفة بما قدمه الأوائل، ثم يلي ذلك عملية الفهم والفقه لما أحاط به علما ومعرفة. فمجرد الإحاطة بأقوال السابقين تمد العقل بمواد المعرفة، لكن الفهم الدقيق هو الذي يجعل المرء قادرا على الإضافة والمساهمة في البناء المعرفي[32] كلّ على شاكلته، "إما شيء لم يسبق إلى استخراجه فيستخرجه، وإما شيء ناقص فيتممه، وإما شيء مخطأ فيصححه، وإما شيء مستغلق فيشرحه، وإما شيء طويل فيختصره، دون أن يحذف

[31] وأقصد بالصرح المتعلِّي قابلية هذا الصرح للنموِّ والزيادة ، ولاسيما أنّ لفظة التعلِّي لغة تعني الارتفاع شيئا فشيئا، وهذا يتناسب مع نمو وتطور العلوم والمعارف.

[32] هذه الجملة الأخيرة مستوحاة من قول جون لوك: "إنّ القراءة لا تمد العقل إلا بمواد المعرفة، لكن التفكير هو الذي يجعل ما نقرؤه ملكا لنا"، نقلا عن بكار، عبد الكريم، **فصول في التفكير الموضوعي** (بيروت: الدار الشامية، 1993م)، ص131.

منه شيئا يخل حذفه إياه بغرضه، وإما شيء متفرق فيجمعه، وإما شيء منثور فيرتبه"[33].

وبناء على ذلك، فإنّ ابن حزم رحمه الله كان حريصا على "المثابرة على التحصيل ليحصل ما لم يحصله أحد قبله"، فـ"لابدّ لمن أراد علم البلاغة من أن يضرب في جميع العلوم التي قدمنا قبل هذا بنصيب، وأكثر هذا القرآن والحديث والأخبار وكتب عمرو بن بحر ويكون مع ذلك مطبوعا فيه وإلا لم يكن بليغا، والطبع لا ينفع مع عدم التوسع في العلوم"[34].

ولذلك كانت لابن حزم همّة عالية في طلب العلم حيث امتاز تحصيله العلمي باستيعاب علوم ومعارف عصره جميعها تقريبا، بل حتى ما كان مذموما ومستهجنا في البيئة الأندلسيّة آنذاك مثل الفلسفة والمنطق، ومن اشتغل بهما رُمي بالفسق والزندقة واتهم في دينه، حيث "إنّ الفلسفة في الأندلس تعرضت لثورة عارمة من جميع القوى؛ القوة الحاكمة وقوة الفقهاء وهم في كلّ العصور أشدّ سطوة على الفلسفة من القوة الحاكمة، وقوة العامة. تلكم القوى أدى تعاونها مع بعضها إلى اتفاق على مطاردة الفلسفة وتعقبّ رجالها وحرق كتابها، واتهام من جاهر بها بالكفر والزندقة وإقامة حدّ الرِّدة عليه"[35].

فضلا عن ذلك، فإنّ مؤلفات ابن حزم خير شاهد على ما امتاز به هذا الإمام من كثرة التحصيل وسعة الاطلاع على جهود السّابقين مع دقة بحث وفهم لما حصله، إذ "دعائم العلم مشهورة مستحكمة يؤثر بها العلم على سائر أعراض الدنيا من اللذات والمال والصوت، ثم قصد إلى عين العلم، ليخرج به عن جملة أشباه البهائم

---

[33] ابن حزم، **التقريب لحد المنطق**، ج4، ص103.

[34] المصدر السابق، ص353.

[35] الفيومي، محمد إبراهيم، **تاريخ الفلسفة الإسلامية في المغرب** (القاهرة: دار المعارف، 1992م)، ص263.

فقط، لا ليجعله مكتسبه ولا ليمدح به، وذكاء وفهم وبحث وذكر وصبر على كلّ ذلك، والتعب فيه وإنفاق المال عليه والاستكثار من الكتب، فلن يخلو كتاب من فائدة وزيادة علم يجدها فيه إذا احتاج إليها"[36].

ولقد اتهم ابن حزم من طرف معاصريه بعدم العلم والمعرفة بجهود السابقين فضلا عن فهمها، فقام بتفنيدها وبيّن أنّ المتهِّمين هم المتهَّمون. يقول ابن حزم: "ثم قالوا وصنعت دواوين وحبَّرتها على ما قد ظهر إليك، لم تقنع بتواليفهم ولا صوبتها ولا رضيتها، فخالفتهم وعِبتهم فيما ألفوه وخطأتهم فيما صوَّبوه استنقاصا لحقهم وتنكبا عن قصدهم. فالجواب وبالله تعالى التوفيق أن هؤلاء القوم لا يستحيون من الكذب والبهتان، يطلقون أننا رغبنا عن تواليفهم ولم نصوبها ولا رضيناها وخالفناها وعبناها وخطأناها استنقاصا لحقهم وتنكبا عن قصدهم، فهلا بينوا هذا الضمير إلى من يرجع؟ وهذه التواليف ما هي؟ لكننا نحن نبيّن بحول الله تعالى كلّ ذلك ببيان نشهد الله تعالى وملائكته وكل من سمعه بأنه الحق وذلك أنّ الناس ألفوا: فألف أصحاب الحديث تواليف جمّة، وألف الحنفيون تواليف جمّة، وألف المالكيون تواليف جمّة، والشافعيون تواليف، فلم يكن عندنا تأليف طبقة من هذه أولى أن يلتفت إليه من تأليف غيرها، بل جمعناها ولله الحمد وعرضناها على القرآن وما صحّ عن النبيّ ﷺ فلأيِّ تلك الأقوال شهد القرآن والسنة أخذنا به وتركنا ما عداه"[37].

ثانيا: تصنيف العلوم من المنظور الحزمي

لقد اعتنى العلماء المتقدمون والمتأخرون عن ابن حزم بتصنيف العلوم، "ومن يستقرئ تاريخ العلم الإسلامي يجد محاولات كثيرة لتصنيف العلوم عند الكندي

[36] ابن حزم، **مراتب العلوم**، ج4، ص77.
[37] ابن حزم، **الرسائل**، ج3، ص89.

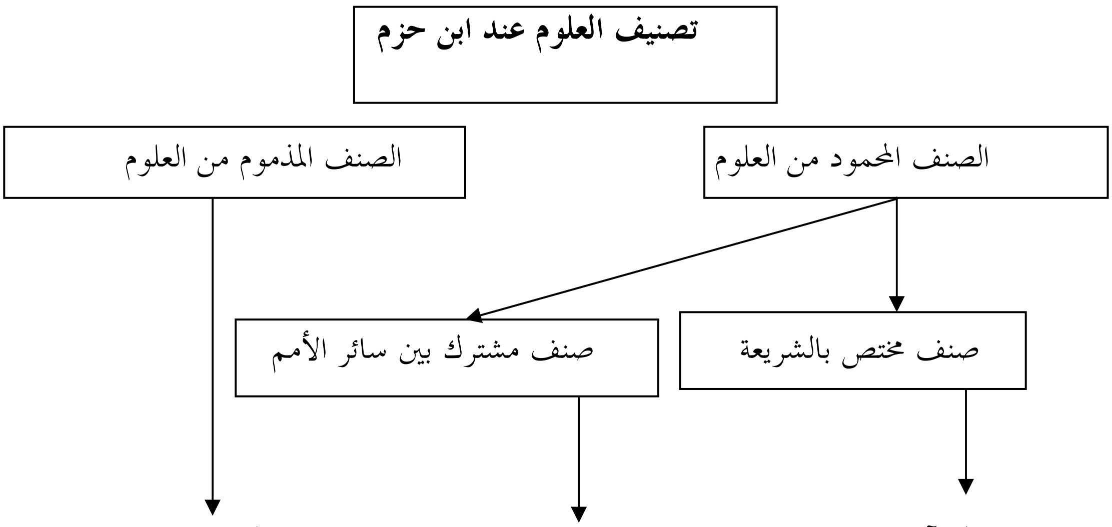
والفارابي وغيرهم"[38]، ولذا اختلفت وجهات النظر في ذلك، وإن كانت أغلبها تصنِّف العلوم تصنيفا ثنائيا تقابليا مثل: علوم نظريّة مقابل علوم عمليّة، وعلوم عقلـيّة مقابل علوم نقلـيّة، وعلوم وسائل مقابل علوم مقاصد، وعلوم شرعـيّة مقابل علوم الأوائل[39]. وهذا التصنيف الثنائي للعلوم ساهم – عن قصد أو عن غير قصد – في ظهور نـزعة تفاضلية وتفاصلـيّة بين العلوم؛ حيث يتم الفصل بين علم وآخر، فلا علاقة بين مختلف الميادين العلمية والمعرفية، ثم يتبع ذلك تفضيل علم على آخر، فكلّ أصحاب علم يدّعون الفضيلة لما هم عليه ويسفهون أصحاب العلوم الأخرى.

وقد أدرك الإمام ابن حزم خطورة هذه النَّزعة في تصنيف العلوم، حيث إنّ فريقا من الناس "لم يكن طلبهم لما طلبوا من العلم إلا الازدراء بسائر العلوم وتنقيصها، لظنِّهم الفاسد أنّه لا علم إلا الذي طلبوا فقط...فمن ذلك أن وجدنا قوما من أهل الطلب أعني لعلوم الديانة، يزرون بسائر العلوم. وهذا نقص عظيم لا ينتفع به صاحبه...ووجدنا قوما طلبوا علوم الأوائل أو علما منها، واتخذوا سائر العلوم سِخريًّا"[40]. وأما الإمام ابن حزم رحمه الله فقد اهتم اهتماما بالغا بقضية تصنيف العلوم، حيث خصص رسالتين للكلام على تصنيف العلوم، وهما: رسالة التوقيف على شارع النجاة باختصار الطريق ورسالة مراتب العلوم؛ إذ أسس تصنيفه للعلوم بناء على التمييز بين صنفين وهما: صنف نافع محمود يتضمن العلوم العقلية والشرعية وصنف مذموم لا يقبله لا شرع ولا عقل. ويمكن توضيح العلوم المحمودة والعلوم المذمومة من المنظور الحزمي من خلال الرسم البياني الآتي:

[38] باشا، أحمد فؤاد، **إبستمولوجيا العلم ومنهجيته في التراث الإسلامي** (من منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ندوة قضايا المنهجية في الفكر الإسلامي: الجزائر، 1989م)، ص16.

[39] انظر: النجار، عبد المجيد، **مباحث في منهجيّة الفكر الإسلامي** (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1992م).

[40] ابن حزم، **التقريب لحدّ المنطق**، ص76-78.



صنف مختص بالشريعة	صنف مشترك بين سائر الأمم	الصنف المذموم من العلوم
علم القرآن	علم الهيئة	السحر
علم الحديث	علم الرياضيات	الطلسمات
علم الفتيا (الفقه)	علم المنطق	الكيمياء
علم النحو	علم الطبّ	القضاء بالكواكب
علم اللغة	علم الشعر	
علم الأخبار (التاريخ)	علمان زائدان[41] وهما: أ. علم البلاغة	
علم الكلام	ب. علم العبارة (تعبير الرؤيا)	

إنّ من الملامح المميِّزة للمنهج الحزمي في هذا التصنيف الابتعاد عن التصنيف التقابلي للعلوم، "إذ حقيقة العلم هو ما قلنا إنّه يطلبه لينتفع به طالبه، وينتفع به غيره في داره العاجلة وداره الآجلة التي هي محلّ قراره ومكان خلوده"[42]. فابن حزم صنّف العلوم على أساس المنفعة دنيوية كانت أم أخروية، لا على أساس تقابلي بين علم

[41] يقول ابن حزم: "وهاهنا علمان إنما يكونان نتيجة العلوم التي ذكرنا إذا اجتمعت، أو من نتيجة اجتماع علمين منهما فصاعدا وهما علم البلاغة وعلم العبارة". **مراتب العلوم**، ص80.

[42] ابن حزم، **مراتب العلوم**، ص75-76.

وآخر، إذ "العلوم الدائرة بين الناس اليوم المقصودة بالطلب اثنا عشر علما، وينتج منها علمان زائدان، وهذه الرتبة هي غير الرتبة التي كانت عند المتقدمين، ولكن إنّما نتكلم على ما ينتفع به الناس في كلّ زمان مما يتوصلون به إلى مطلوبهم من إدراك العلوم بحول الله تعالى وقوته"[43]. ولكن هذا لا يعني أنّ العلوم لا تتفاضل فيما بينها، بل تتفاضل ، حيث "يؤثر منها بالتقديم ما لا يتوصل إلى سائر العلوم إلا به، ثم الأهم فالأهم والأنفع فالأنفع، فإنّ من رام الارتقاء إلى أرفع العلوم دون معاناة ما لا يوصل إليه إلا به، كمن رام الصعود إلى عليّة مفتحة مظلمة أنيقة البناء دون أنْ يتكلف التنقل إليها في الدرج والمراقي التي لا سبيل إلى تلك العليّة إلا بها"[44].

فضلا عن ذلك، فإنّ رسالة الإمام ابن حزم في مراتب العلوم لم تقف عند إحصاء العلوم المتواجدة آنذاك، ثم تصنيفها وتحديد مجال كل علم، بل تتعدى ذلك إلى ترتيب هذه العلوم من حيث الأولوية في طلب العلم وتحصيله. لكن "لا يمكن النظر إلى ترتيب هذه العلوم على أنه تنازلي أو تصاعدي، تفقد فيه العلوم الموجودة في الأسفل قيمتها بالتدريج، وفائدتها بحسب ابتعادها عن العلوم الأولى، كما لا يمكن النظر إليه على أنه ترتيب تقابلي وتناظري يقسم العلوم إلى نوعين: علوم النقل وعلوم العقل، كل واحد منهما على حدة مع محاولة التوفيق بينهما وبين مراميهما، كما نلاحظ ذلك في تصانيف جلّ الفلاسفة المسلمين، بل هو ترتيب دائري مغلق، يميّز بين ما هو معقول شرعا وعقلا وهو البيان والبرهان، وما هو لا معقول عقلا وشرعا وهو الغنوص والباطن والكشف أو باختصار اللاعلم"[45].

---

[43] ابن حزم، **التقريب لحدِّ المنطق**، ص348.

[44] **المرجع نفسه**، ص62.

[45] سالم يفوت، **ابن حزم والفكر الفلسفي بالمغرب والأندلس** (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1986م)، ص235-236.

وفي هذا يتجلى لنا سعة إحاطة ابن حزم بالعلوم، والفهم الدقيق للمعارف التي أحاط بها علما، ولذلك كانت له قدرة فائقة على تصنيفها تصنيفا تختفي فيه النظرة التقابلية بين العلوم، بل تحض على التعاون بين أصحاب العلوم المختلفة لأنّ العلوم تتداخل فيما بينها من وجهة نظر حزمية.

ثالثا: التداخل المعرفي

لا شكّ أنّ للتداخل بين مختلف العلوم والمعارف وتفاعلها مع بعضها البعض أهمية كبرى في تطور العلوم ونموِّها، بل إنّ "المكان الذي يكون فيه حظوظ أكبر لظهور الابتكار هو ذلك الذي يكون فيه **تشابك (تداخل) بين ميدانيْن معرفييْن على الأقل**"، و"**في الحقيقة فإنّ أكبر تراكم للتقدم المعرفي (العلمي)** يقع في منطقة التقاطع بين الميادين المعرفية"[46]. ولم تخلو العلوم عند المسلمين من التداخل واندماج علم في آخر، "فلم يكتف علماء المسلمين بالقول بتدرج العلوم فيما بينها، بل أقروا بمشروعية تفاعل العلوم بعضها مع بعض، وتشابك العلاقات بينها؛ فالمباحث الكلامية تتفاعل مع المباحث اللغوية والبلاغية والفلسفية، كما تتفاعل المباحث المنطقية مع المباحث اللغوية والأصولية، وهكذا. وقد ساهم هذا التفاعل في إثراء العلوم والفنون بعضها لبعض وفي توجيه بعضها مسار البعض الآخر، بل أدى ذلك التفاعل إلى امتزاج مصطلحات العلم الواحد بمصطلحات غيره من العلوم"[47]. فالتداخل المعرفي يكون على مستويين وهما[48]:

أ- تداخل معرفي داخلي: وهو عبارة عن تفاعل العلوم الإسلامية بعضها مع بعض وحصول اندماج بينها.

---

[46] متاي دوجان وروبرت باهر، **الابتكار في العلوم الاجتماعيّة الهامشيّة الخلاّقة**، ترجمة محمود الذوادي (دمشق: دار طلاس، 1997م)، ص23.

[47] عبد الرحمن، طه، **تجديد المنهج في تقويم التراث** (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1994م)، ص90.

[48] استفدت هذا التقسيم الثنائي للتداخل المعرفي من كتاب طه عبد الرحمن المتقدم الذكر.

ب– تداخل معرفي خارجي: وهو عبارة عن تفاعل العلوم الإسلامية مع غيرها من العلوم المنقولة عن اليونان أو الفرس أو الهند أو غيرها من خارج التراث الإسلامي.

وأما التداخل المعرفي عند ابن حزم فيكاد يكون أهم ملمح لمنهجيّته في التعامل مع مختلف الميادين العلمية والمعرفية، بل لا نعدو الصواب إذا قلنا إنّ التقسيم الثنائي للتداخل المعرفي لا وجود له في المنهجيّة الحزميّة، فسائر العلوم النافعة مندمج بعضها في بعض، "ومن اقتصر على علم واحد لم يطالع غيره أوشك أن يكون ضحكة وكان ما خفي عليه من علمه الذي اقتصر عليه ، أكثر مما أدركه منه لتعلق العلوم بعضها ببعض، كما ذكرنا، وأنها درج بعضها إلى بعض، كما وصفنا، ومن طلب الاحتواء على كلِّ علم أوشك أن ينقطع وينحسر، ولا يحصل على شيء، وكان كالمحضر إلى غير غاية، إذ العمر يقصر عن ذلك، وليأخذ من كل علم بنصيب، ومقدار ذلك معرفته بأعراض ذلك العلم فقط، ثم يأخذ مما به ضرورة إلى ما لابدّ منه كما وصفنا، ثم يعتمد العلم الذي يسبق فيه بطبعه وبقلبه وبحيلته، فيستكثر منه ما أمكنه، فربّما كان ذلك منه في علمين أو ثلاثة أو أكثر، على قدر زكاء فهمه، وقوّة طبعه، وحضور خاطره، وإكبابه على الطلب، وكلّ ذلك بتيسير الله تعالى"[49].

وبناء على ذلك، فإنّ ابن حزم عندما يتكلم على العلوم تصنيفا وترتيبا، فإنّه لا يفرِّق بين علم وآخر، بل كل علم نافع جدير بالمرء أن يطلع عليه، "وإنْ لم تمكن المرء الإحاطة بجميعها [يقصد العلوم الاثنا عشر المتقدمة] فليضرب في جميعها بسهم وإن قلّ"[50]. فعلم المنطق الذي رفضته البيئة الأندلسية، بل حاربت من اشتغل به حربا

---

[49] ابن حزم، **مراتب العلوم**، ص77-78.

[50] المرجع نفسه، ص83.

لا هوادة فيها، جعله ابن حزم "معيارا على كلّ علم"[51]، ومنفعته في كل فنّ من فنون المعرفة. يقول ابن حزم:"وليعلم من قرأ كتابنا هذا أنّ منفعة هذه الكتب [يقصد كتب المنطق والفلسفة] ليست في علم واحد، بل في كلِّ علم، فمنفعتها في كتاب الله ﷻ، وحديث نبيه ﷺ، وفي الفتيا في الحلال والحرام والواجب والمباح من أعظم منفعة. وجملة ذلك في فهم الأسماء التي نصّ الله تعالى ورسوله ﷺ عليها وما تحتوي عليه من المعاني التي تقع عليها الأحكام وما يخرج عنها من المسيمات، وانقسامها تحت الأحكام على حسب ذلك. وليعلم العالمون أنّ من لم يفهم هذا القدر فقد بعد عن الفهم عن ربِّه تعالى وعن النبي ﷺ، ولم يجز له أن يفتي بين اثنين لجهله بحدود الكلام، وبناء بعضه على بعض، وتقديم المقدمات، وإنتاجها النتائج التي يقوم بها البرهان وتصدق أبدا، ويميّزها من المقدمات التي تصدق مرّة وتكذب أخرى ولا ينبغي أن يعتبرها"[52].

رابعا: النظرة التكامليّة للعلوم

لقد تقدم الكلام على أنّ العلوم والمعارف تتفاعل فيما بينها، وأنّ كثيرا من علماء المسلمين كان لهم اعتناء بتحصيل أكثر ما يمكن من العلوم، وذلك إدراكا منهم لأهمية النظرة التكامليّة للعلوم، بل إنّ هذه النظرة كانت إحدى مميِّزات التراث الإسلامي، كما أشار إلى ذلك الدكتور طه عبد الرحمن بقوله: "كما أنّه لا بدع في أن تؤثر هذه العلوم بعضها في بعض، فتنتقل على سبيل المثال أوصاف الدليل من المنطق إلى علم الكلام، ثم منها إلى علم الأصول، فإلى علم البلاغة، وتتلون هذه الأوصاف بلون كل علم من هذه العلوم، ثم تنتقل هذه الأوصاف بألوانها المختلفة من علم إلى آخر، كأن يعرض الدليل في المنطق بلون علم الكلام أو علم الأصول، وقد

[51] ابن حزم، **التقريب لحدّ المنطق**، ص102. وقد سبق الإمام الغزالي بخمسين سنة تقريبا في عدّ المنطق معيارا للعلوم وأنّ من لم يتمكن منه فلا يوثق بعلمه ولا بفتواه، ولا شك في تأثر الإمام الغزالي بابن حزم في هذا المجال حتى إنّ كثيرا من التعبيرات تكاد تكون نفسها عند الإمامين.

[52] ابن حزم، **التقريب لحدّ المنطق**، ص102.

تجتمع الألوان المختلفة للدليل في العلم الواحد، وما هذا وذاك إلا لأنّ التراث الإسلامي العربي ينْزع نزعة تكامليّة ظاهرة يتفرد بها عن غيره"[53].

وإذا ما انتقلنا إلى وضع العلوم عند الإمام ابن حزم بدا لنا مظهر الوحدة بين مختلف العلوم والمعارف واضحا جليا، فـ"العلوم كلها متعلّق بعضها ببعض، محتاج بعضها إلى بعض"[54]، بل "لا يستغني منها علم عن غيره"[55]. فابن حزم لم يكن جهده منصبا على نصرة منقول على معقول، ولا نصرة معقول على منقول، ولا التحيّز لعلم دون آخر كما هو حال الأكثرية اليوم، بل "ليس على المرء أكثر من نصر الحق وتبيينه"[56]. "واعلم أنّ نظرك في العلوم على نية إدراك الحقائق في إنكار الباطل ونصر الحق وتعليمه للناس وهدي الجاهل ومعرفة ما تدين به خالقك ﷻ"[57].

ولا شكّ أنّ هدفا مثل هذا لا يمكن أن يتحقق إلا بنظرة تكامليّة للعلوم. وتعدّ هذه النظرة ملمحا مهما في المنهجية الحزمية ونتيجة منطقيّة للتصور الذي قدمه ابن حزم للعلوم تصنيفا وترتيبا وتدريسا. وبما أنّ الكلام على التصنيف والترتيب الحزمي للعلوم قد تقدم وفيه تعبير واضح عن النظرة التكامليّة للعلوم، فتبقى الإشارة إلى المنهج التدريسي الذي اقترحه، وهو أيضا يخدم هذه النظرة للعلوم.

ذكر ابن حزم منهجا للتدريس طابعه الإحاطة والاستيعاب لعلوم ومعارف عصره، في رسالته مراتب العلوم، وابتدأه بقوله:"فالواجب على من ساس صغار ولدانه وغيرهم أن يبدأ منذ أول اشتدادهم وفهمهم ما يخاطبون به، وقوتهم على رجع الجواب، وذلك يكون في خمس سنين أو نحوها من مولد الصبيّ، فيسلم إلى مؤدب في

---

[53] عبد الرحمن، طه، **اللسان والميزان أو التكوثر العقلي** (بيروت: المركز الثقافي العربي، 1998م)، ص131.
[54] ابن حزم، **مراتب العلوم**، ص81.
[55] المرجع نفسه، ص90.
[56] ابن حزم، **التقريب لحدّ المنطق**، ص334.
[57] المرجع نفسه، ص345.

تعليم الخطّ وتأليف الكلمات من الحروف، فإذا درب الغلام في ذلك، ودرس وقرأ ..."[58]. ويمكن توضيح منهجه في التدريس من خلال الجدول الآتي:

المرحلة الأولى:	ــ تعلم الخط والقراءة والقرآن الكريم.
المرحلة الثانية:	ــ النحو واللغة والشعر.
المرحلة الثالثة:	ــ علم العدد (الضرب والقسم والجمع والطرح والمساحة...).
المرحلة الرابعة:	ــ المنطق والعلوم الطبيعيّة.
المرحلة الخامسة:	ــ علم الأخبار (التاريخ القديم والحديث).
المرحلة السادسة:	ــ علم الكلام (ولاسيما القضايا المتعلقة بالعالم والنبوات).
المرحلة السابعة:	ــ علم الشريعة بفروعه المختلفة.

إنّ النظرة التكامليّة للعلوم تعدّ أهم ملمح مميِّز للمنهجيّة الحزمية في التعامل مع مختلف الميادين العلميّة والمعرفيّة، وأما بقيّة الملامح فهي خادمة لهذه النظرة الأساسية. وبناء على ذلك ، كان ابن حزم حريصا على الإحاطة بعلوم ومعارف عصره، وحتى تصنيفه للعلوم تختفي فيه القسمة التقابلـــيّة للعلوم، وترتيبها أيضا لا يتضمن معنى أفضلية علم على آخر. ثم إنّ التداخل المعرفي المعبّر أيضا عن النظرة التكامليّة للعلوم يمتزج فيه التداخل المعرفي الخارجي بالتداخل المعرفي الداخلي امتزاجا لا يمكن التمييز بينهما؛ فلا فرق بين تداخل علمين كلاهما نابع من التراث الإسلامي، أو أحدهما من التراث الإسلامي والآخر من تراث غير إسلامي، وفي ذلك تتحقق النظرة التكامليّة للعلوم. وفي ذلك "تنبيه على أهميّة التكامل بين العلوم المختلفة والربط بين أصولها وفروعها وملاحظة اتجاهها في تطورها نحو الوحدة"[59].

[58] ابن حزم، **مراتب العلوم**، ص65.

[59] باشا، أحمد فؤاد، **إبستمولوجيا العلم ومنهجيته في التراث الإسلامي** – مرجع سابق –، ص18.

خامسا: القراءة النقدية للعلوم والمعارف

إنّ عمليّة النقد مرحلة متأخرة عن الإحاطة بجهود السابقين والفهم لها، وبعبارة أخرى، فإنّ القراءة النقدية للعلوم والمعارف لا تؤتي أكلها إلا إذا تقدمها استيعاب وإدراك لما يراد نقده، فإذا اختل هذا الشرط كانت عملية النقد عبارة عن هدم وتخريب لما أشاده المتقدمون. وقد أشار الإمام ابن حزم إلى أنّ عملية النقد لا تكون إلا بعد طول بحث وإحاطة بالعلوم التي يراد نقدها، إذ يقول: "ولقد رأيت طوائف من الخاسرين شاهدتهم أيام عنفوان طلبنا وقبل تمكنا قوانا في المعارف وأوان مداخلتنا صنوفا من ذوي الآراء المختلفة كانوا يقطعون بظنونهم الفاسدة من غير يقين أنتجه بحث موثوق به على أنّ علم الفلسفة وحدود المنطق منافية للشريعة. فعمدة غرضنا وعلمنا إنارة هذه الظلمة بقوة خالقنا الواحد ﷻ فلا قوة لنا إلا به وحده لا شريك له"[60].

وبناء على ما تقدم ذكره بالنسبة للتداخل المعرفي عند ابن حزم، وأنّه لا فرق عنده بين التداخل المعرفي الداخلي والخارجي، فإنّ قراءته النقدية امتدت إلى العلوم والمعارف التي اشتغل بها من فقه وأصول ونحو وفلسفة ومنطق وكلام. فقد "كانت حياة ابن حزم الفكرية سجلا حافلا بألوان متعددة من الثقافات المتشعبة و لم يكن ابن حزم من ذلك النوع الذي تستبدّ به فكرة أو تحجبه عن الحقيقة موروثات فكرية، قد يكون بعضها في حاجة إلى نقد تاريخي وعقلي، بل إنّه كان ثورة على هذا الاستسلام للمشهور والموروث من الآراء والأفكار وبخاصة إذا اصطدمت هذه الموروثات بالدلالة العقلية"[61]. وبما أنّ القراءة النقدية الحزمية امتدت إلى العديد من الميادين العلميّة، فإننا سنقتصر على ميدان أصول الفقه بوصفه أحد الأمثلة المهمة للبرهنة على تلك القراءة.

---

[60] ابن حزم، **التقريب لحدّ المنطق**، ص232.

[61] عويس، عبد الحليم، **ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري** (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ط2، 1988م)، ص341.

من المعلوم لدى المتخصصين في الدِّراسات الأصوليّة والفقهيّة أنّ علم أصول الفقه قبل ابن حزم كان يسير في تيّار واحدٍ ومنهج معيّن، ضُبط وحدد من قِبل أئمة الاجتهاد من لدن الإمام الشافعي، مع وجود خلافات داخل هذا المنهج تبدو في صورة تناقض وتضارب، إلاّ أنّها كلها تعبِّر عن الالتزام بمنهج واحد، متمثل في عمليّة الاستنباط عن طريق الاجتهاد بالرأي. وكان هذا المنهج الاجتهادي (الاجتهاد بالرأي) هو المعتمد والمعوّل عليه في استنباط الأحكام الشرعيّة، مع تفاوت بين أئمة المذاهب توسّعاً وتضييقاً في استخدامه، أو قَبولاً لدليل وردًّا لآخر، وعلى الجملة فالمنهج واحد. فلمّا ظهر ابن حزم أتى بمنهج أصولي جديد[62] أنكر من خلاله الاجتهاد بالرأي من قياس واستحسان ومصلحة مرسلة وسدّ ذريعة وغيرها، وحصر الاجتهاد في النصوص الشرعيّة، وما لم يرد فيه نص استخدم معه أصل الاستصحاب، أو كما قال ابن خلدون:" ثم أنكر القياس طائفة من العلماء وأبطلوا العمل به وهم الظاهريّة، وجعلوا المدارك كلها منحصرة في النصوص والإجماع، وردوا القياس الجلّي والعلّة المنصوصة إلى النص لأن النص على العلّة نص على الحكم في جميع محالّها"[63].

وفضلا عن ذلك، فإنّ ابن حزم لم يقف عند رفض الأدلة المختلفة فيها في عملية الاجتهاد ومن بينها القياس الفقهي مخالفا بذلك من تقدمه من الأصوليين، بل تجاوز ذلك إلى الاعتماد على القياس المنطقي في استنباط الأحكام الفقهيّة بوصفه بديلا

---

[62] وإن كان ابن حزم قد سبقه إلى القول بالظاهر داود بن علي المتوفى سنة 270هجرية، إلا أن الفضل يرجع له في وضع أصول هذا المنهج الاجتهادي والتفريع عليها بما لم يسبق إليه، ولم يأت بعد ابن حزم ظاهري قام بمثل ما قام به. و"داود بن خلف الأصبهاني، أبو سليمان الملقب بالظاهري: أحد الأئمة المجتهدين في الإسلام، تنسب إليه الطائفة الظاهريّة، وسميت بذلك لأخذها بظاهر الكتاب والسنة وإعراضها عن التأويل والرأي والقياس وكان داود أول من جهر بهذا القول، ولد في الكوفة وسكن بغداد، وانتهت إليه رئاسة العلم فيها...". خير الدين الزركلي، **الأعلام**، (بيروت: دار العلم للملايين، ط.7، 1986م).

[63] ابن خلدون، **المقدمة** (بيروت: دار المعرفة، د.ت)، ص446.

عن القياس الفقهي، وأنّ من لم يحط به علما فلا يوثق بفقهه ولا بفتواه، والسبب وراء ذلك أنّ القياس الفقهي دلالته ظنية، بينما القياس المنطقي دلالته قطعيّة، والاعتماد عليه لا يؤدي إلى اختلاف الأحكام في المسألة الواحدة كما هو الشأن بالنسبة للاعتماد على القياس الفقهي. "وبعد فقد نوافق ابن حزم وقد نخالفه، ولكننا لا نملك إلا أن نسجل أنه دشّن مرحلة جديدة من النقد في الثقافة العربية الإسلامية: نقد عام وشامل للعرفان بنوعيه الشيعي والصوفي، منهجا ورؤية، ونقد عام وشامل كذلك لعلم الكلام، قضايا ومنهجا، وللقضايا عند الفقهاء والنحاة. وهو في هذا النقد الشامل لم يكن يمارس النقد من أجل النقد، بل من أجل تجاوز أزمات النموّ في الثقافة العربيّة"[64].

مدى صلاحية المنهجيّة الحزميّة لأسلمة العلوم والمعارف الإنسانية

وبعد ما تقدم من بيان ما يتعلق بمنهجيّة ابن حزم في التعامل مع مختلف الميادين العلميّة والمعرفيّة، مع التركيز على أهم الملامح المميِّزة لهذه المنهجيّة والتي ينبغي أن ينظر إليها بعين الاعتبار وأن لا تهمل عند الكلام على التعامل الحزمي مع العلوم، فيمكن الآن التطرق لبيان مدى صلاحية المنهجيّة الحزمية لأسلمة العلوم والمعارف الإنسانية، ولاسيّما أننا في عصر هيمن فيه العالم الغربي على هذه العلوم عموما، حيث يكاد يكون المنتج الوحيد لها والمصدر المتميّز في تلقيها. وقد اختلفت نظرة المسلمين تجاه هذه العلوم، وذلك بناء على مصدريتها الغربيّة؛ ففريق نبذها وراء ظهره واتخذها سِخريّا، وفريق ثان قبلها بحلوها ومرِّها، وفريق ثالث قبل منها ما يتماشى مع تعاليم الشريعة الإسلاميّة ورفض مالا يتماشى معها. ولذا فمن الأهمية بمكان تجاه هذه الاختلافات التطرق لبيان أهميّة المنهجيّة الحزمية لأسلمة العلوم الإنسانية، اعتمادا على

---

[64] الجابري، محمد عابد، **بنية العقل العربي** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، 1987م)، ص527.

الملامح المتقدمة، حتى نربط آخر الكلام بأوله، ونتقيد بما استخلصناه من ملامح مميِّزة للمنهجيّة الحزمية، وبيان ذلك في الفقرات الآتية:

1- فلا شكّ عند الباحث أنّ الإحاطة بالعلوم والمعارف الإنسانيّة، ثم الفهم لها والوعي بها هو أقوم السبل للقيام بعملية الأسلمة، إنْ لم يكن هو السبيل الوحيد الذي يحقق هذا الطموح. ولعلّ السبب المباشر عند من رفض العلوم الإنسانيّة كليّة بناء على مصدريتها الغربيّة ناتج عن عدم الإحاطة والاستيعاب لها وعدم فهمها أيضا، والمرء عدو ما جهل. ولذا فالإحاطة والاستيعاب للعلوم الإنسانيّة ثم الفهم لما استوعبه منها يعدّ-في نظر الباحث- الخطوة الأولى في عمليّة الأسلمة. ومن رام القيام بذلك دون الفهم والإحاطة بها سيكون خطؤه أكثر من صوابه، لأنّ ذلك نتيجة منطقيّة للمنهجيّة الخاطئة التي سلكها في عملية الأسلمة.

2- بعد عمليّة الفهم والاستيعاب للعلوم الإنسانيّة، يأتي دور تصنيفها وترتيبها. فالقيام بتصنيف العلوم له أهميّة كبرى في عمليّة الأسلمة، بل عليه يتوقف نجاحها، والتصنيف الحزمي للعلوم كفيل -في تقدير الباحث- بتحقيق ذلك. فتبرز أهميّة المنظور الحزمي لتصنيف العلوم في التقسيم الثنائي على أساس المنفعة، لا على أساس تقابلي بين مختلف العلوم والمعارف. وبناء على ذلك، فإدراك القائم بعمليّة الأسلمة للتصنيف الحزمي للعلوم يجعله قادرا على الاشتغال بالعلوم النافعة للمسلمين في دنياهم وأخراهم، بل إنّ ذلك يكون دافعا له على المثابرة لتحصيل هذه العلوم والتوسّع فيها، إذا كان هدفه المنفعة لنفسه ولغيره من المسلمين، إذ "حقيقة العلم هو ما قلنا إنّه يطلبه لينتفع به طالبه، وينتفع به غيره في داره العاجلة وداره الآجلة التي هي محلّ قراره ومكان خلوده"[65].

---

[65] ابن حزم، **مراتب العلوم**، ص75-76.

وفضلا عن ذلك، فإنّ فائدة هذا التصنيف على أساس المنفعة يكون خير معين للقائم بعمليّة الأسلمة لترتيب العلوم حيث "يؤثر منها بالتقديم ما لا يتوصل إلى سائر العلوم إلا به، ثم الأهم فالأهم والأنفع فالأنفع "[66] من العلوم الإنسانيّة على تقدير مدى منفعتها للمسلمين. وبناء على ذلك، فإنّ العلوم الإنسانيّة متعددة الفروع كثيرة الأنواع، بحيث يقصر العمر عن الإحاطة بها، ولذا تبرز قدرة القائم بعمليّة الأسلمة ليس فقط في اختيار النافع من العلوم الإنسانيّة، بل في ترتيبها من حيث الأهميّة، فيقدم الأهم فالأهم منها.

3– فإذا تمت عملية الفهم والاستيعاب للعلوم الإنسانيّة، مع القيام بتصنيفها على أساس الأنفع فالأنفع، وترتيبها على أساس الأهم فالأهم، يأتي دور التداخل المعرفي. وتعدّ هذه الخطوة متميِّزة عن الخطوتين السابقتين، إذ تحتاج إلى بذل مجهود أكثر مما تقدم، حيث إنّ المطلوب من المهتمين بميدان الأسلمة أن يقوموا بعمليّة التداخل المعرفي؛ فيتم في هذه المرحلة تداخل وتفاعل العلوم النابعة من التراث الإسلامي مع العلوم الإنسانيّة النابعة من التراث الغربي. وكما تقدم أن قلنا إنّ التقسيم الثنائي للتداخل المعرفي لا وجود له في المنهجيّة الحزميّة، فسائر العلوم النافعة مندمج بعضها في بعض، ولذا فإنّ التداخل المعرفي لا يتحقق إلا بعد استيعاب وفهم العلوم الإنسانيّة، فضلا عن العلوم الإسلاميّة، ويتوسط هذا وذاك عمليّة التصنيف والترتيب للعلوم حتى تؤتي عمليّة الأسلمة أكلها، والغاية المنشودة منها.

وبناء على ذلك، فإنّ عمليّة الأسلمة –في نظر الباحث– لا يمكن أن تحقق إلا من خلال نظرة تكامليّة للعلوم، إذ العلوم في نظر ابن حزم متعلق بعضها ببعض، محتاج بعضها إلى بعض، بل لا يستغني منها علم عن غيره، وبذلك يتم "استيعاب المعرفة الإنسانيّة متمثلة في مختلف العلوم المقتبسة من الثقافات، وذلك بملاحظة الوضع الجديد

[66] المرجع نفسه، ص62.

الذي آلت إليه وينبغي أن تؤول إليه في دائرة الثقافة الإسلاميّة فتكون في ذلك الوضع متناسقة مع سائر العلوم الأخرى"[67].

4- فإذا كان القائم بعمليّة الأسلمة انتهى إلى إحداث تداخل وتفاعل بين العلوم النابعة من التراث الإسلامي والعلوم الإنسانيّة النابعة من التراث الغربي بناء على النظرة التكامليّة للعلوم، فلابدّ بعد ذلك من القيام بخطوة أخرى، تعدّ ثمرة للخطوات السّابقة وهي القِراءة النقديّة لتلك العلوم والمعارف. فالعلوم والمعارف مهما بلغت من الدّقة والتحري فهي قابلة للخطأ والزلل، لأنّ المنتج لها أيضا غير معصوم من الوقوع في أخطاء وهفوات يصوبها من جاء بعده؛ فليس الفضل على زمن بمقصور، وعزيز على الفضل أن ينكر تقدم به الزمان أو تأخر، فإن كان للأول فضل السبق، فإنّ للمتأخر فضل التعقيب والاستدراك والتصويب ويشمل كلّ ذلك عمليّة القراءة النقدية للعلوم، والتي اعتنى بها الإمام ابن حزم في مؤلفاته المتنوعة، حيث شملت قراءته النقدية العلوم جميعها دون التمييز بين علم وآخر.

بل إنّ عمليّة النقد لديه شملت النّص الديني أيضا، حيث إنّ "ابن حزم الأندلسي قد درس الأسفار الخمسة دراسة وثائقية، وحللها تحليلا نقديا منهجيا مستخدما تكتيكا متطورا تمثل في عملية استقراء تاريخي دقيق، استهدف به فحص الظروف العامة والملابسات الخاصة التي أحاطت بكتابة هذه الأسفار الخمسة، وحفظها ونقلها، ثم درس دراسة نقدية نصّ هذه الأسفار، ليعرف واقع هذا المتن في حدِّ ذاته ليصل إلى الحكم على هذا النص أو هذه الوثيقة. لقد تشكل منهج ابن حزم التحليلي من النقد الخارجي أو بحث السند والرواية ومن النقد الداخلي أو فحص النّص أي المحتوى"[68].

---

[67] النجار، **مباحث في منهجيّة الفكر الإسلامي**، ص73.

[68] الشرقاوي، محمد عبد الله، **منهج نقد النص بين ابن حزم واسبينوزا** (القاهرة: مطبعة المدينة، 1993م)، ص17.

إذن فهذه الخطوة الأخيرة لها أهمّيّتها في عمليّة الأسلمة، من حيث التصويب والاستدراك والإتمام والشرح والتبسيط، فـ"لا يسلّم تسليما مطلقا بالآراء والمعلومات المتداولة التي قررها الأسلاف أو المعاصرون على أنّها حقائق لا يرقى إليها الشكّ، أو كأنّها شيء مقدس لا يجوز النظر فيها ولا تقبل المناقشة"[69]، بل على القائم بعمليّة الأسلمة إمعان النظر وإجالة الفكر فيما بين يديه من العلوم من أجل تحقيق القراءة النقدية السليمة لها.

5- وأخيرا، فإنّ لهذه المنهجيّة -في نظر الباحث- أهميّة كبرى في مجال تطوير العلوم والمعارف الإسلاميّة والإنسانيّة عموما، حيث إنّ الوعي بها واستحضارها لدى الباحث المسلم تجعل منه باحثا واسع الأفق، كما كان حال ابن حزم رحمه الله حيث جمع بين علوم تعدّ في نظر معاصريه متناقضة؛ فقد جمع بين الفقه والفلسفة والمنطق والحديث والأصول والكلام. وتحصل الاستفادة من هذه المنهجـيّة وذلك بترسيخ أهمّيّتها وجدواها بين أبناء المسلمين في مختلف الميادين العلمية والمعرفية حتى يسود بينهم الوئام والاحترام وتبادل المعارف والخبرات، بدلا من تنافر واشمئزاز كل واحد من الآخر، لأنّه مخالف له في الميدان العلمي المنتمي إليه، فالوعي لمغزاها يفسح المجال واسعا أمام الباحثين والدارسين المعاصرين للاستفادة من كل المعارف والخبرات المتوفرة في العالم، فإذا ساد الوعي بهذه النظرية فلن نجد بينهم الاشمئزاز من بعض العلوم والتحيّز للبعض الآخر. وبذلك أرجو أنْ أكون قد قدمت بحثا نافعا وعملا صالحا ومساهمة فعّالة في ميدان البحوث والدِّراسات. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

[69] فضل الله، مهدي، **أصول كتابة البحث وقواعد التحقيق** (بيروت: دار الطليعة، 1993م)، ص21.